

# الأبواب

حارسة أسرارنا



حين كنا صغاراً، كانت أمهاتنا توصينا أن نلعب أمامه، وألاً نذهب بعيداً عنه. وحين نعود من سفر أو من أي مكان آخر، يكون عادة أول من يستقبلنا، وأول من يستقبل ضيوفنا. وجهه يتولى صدّ البرد والحر والصوص عنا، بينما يصغي ظهره إلى أسرارنا ويحفظها بأمانة.

إنه الباب، ذلك الذي وضعه الإنسان لبيوته ومدنه القديمة وحرارته أيضاً، كي يصدّ عنها الغرباء والغزاة. بعض الأبواب زالت، وبعضها ما زال واقفاً يحكي بصمت عن الأوائل الذين عبروها. فما هي حكاية هذه الأبواب، التي تتجمّع خلفها عوالم وحكايات وقصص كثيرة، وأمامها مساحات اللعب والسهر والضوء والحرية؟



## قل لي ما شكله أقل لك أين أنت

والأبواب هوية أيضاً، فلو ذهبت إلى بلدان تسود فيها الثقافة الإسلامية، ستلاحظ أن أبواب مشيدياتها الرئيسية منقوشة بالنقوش الإسلامية، وإذا ذهبت إلى مدينة حديثة ستلاحظ أن أبوابها بسيطة، وعملية أكثر.. أما إذا ذهبت إلى بلد له تاريخ معين، وثقافة معينة فسوف تكتشف أن أبوابه تحمل هذا التاريخ في تصميمها وزخارفها. وإن قلت إن أبواب مدينة ما كلها زرقاء، فسوف يحزر من تكلمه أن المدينة مطلة على بحر، لأن الأبواب الزرقاء موجودة تقريباً في كل المدن البحرية، في حين أن الأبواب ذات اللون البني الخفيف فقد تجدها في البلدان الصحراوية.

## وللمدن أبواب أيضاً

وجاءت كلمة «باب» كتسمية لمواقع ومدن: كباب المنذب مثلاً، أما اسم مدينة بابل العراقية، فهو كلمة مركبة من كلمتي «باب» و«إبل» الأكدية و«إبل» هو اسم إله وثني في وادي الرافدين.

وأبواب المدن العربية والإسلامية القديمة هي المدخل الوحيد إلى قلب المدينة، مثل أبواب القاهرة وأبواب القدس وأبواب دمشق وبغداد والرباط، التي ما زال بعضها قائماً حتى اليوم، لما تتميز به من قوة وضخامة وتحصين يقاوم الزمن.

وكان لبيروت القديمة أيضاً أبواب، لم يتبق منها حتى اليوم سوى الأسماء. ولعل أشهرها باب إدريس الذي كان يقع في الجهة الغربية لسور بيروت. وقد سمي هذا الباب باب إدريس نسبة لعائلة إدريس التي كانت تسكن تلك المنطقة.

وكانت أبواب مدينة بيروت ككل أبواب العواصم القديمة، تعلق ليلاً كي تنام المدينة مطمئنة وأمنة.



## حراس الأبواب

كان لباب المدينة حارس هو بواب المدينة، من أعيان المنطقة، وكان مسلحاً في معظم الأحيان، مهمته مراقبة الأشخاص الذين يعبرون أبواب المدينة ذهاباً وإياباً. ويقوم بإقفال الباب عند المغيب، وينير المصباح المعلق إلى جانبه، وحين يغلق الباب ويضاء المصباح لا يسمح بفتح الباب إلا لمن يكون مزوداً بكلمة السر، في بعض المدن، أو بتوصية من شخصيات هامة. وبالتالي، كل القوافل التي تصل ليلاً، تنتظر طلوع الصباح ليفتح الباب، ويصبح الدخول إلى المدينة أمراً متاحاً. أما اليوم، فلم يعد هناك بواب أو حارس للمدينة أو الحارة، بل تقلص الأمر وصار هناك بواب

## البداية

بدأ صخرة ثقيلة تسد فتحة في كهف، لتقي قاطنيه من الأخطار الخارجية، كالحوانات المفترسة والبرد والمطر والصوص. بعد ذلك شعر الإنسان بضيق الكهف، وثقل الصخرة، فخرج منها ليبنى بيته، ولكن الحاجة إلى الأمان والخصوصية بقيت موجودة، فكان لا بد من باب.

وبعد الصخر، كان الخشب ثاني المواد التي صنع منها الباب، وحين تطورت العمارة، دخلت المعادن كالحديد والنحاس، والفضة وغيرها في صناعته، ليحيى بعدها الألمنيوم وحتى الزجاج.



## بين الباب والبوابة

والباب هو ذلك الشيء الذي يتألف من مصراع واحد أو مصراعين، وهو أول جزء من أجزاء الدار عند دخولنا إليه. ثم توجد في داخل البيت أبواب الغرف والحجرات المختلفة. أما البوابة فهي تأنيث الباب، ويطلق اسم «بوابة» على أبواب الصروح الهامة، التي تتميز بالاتساع وبضخامة بنائها، أو فخامة زخارفها، كمدخل المدن والمساجد والقلاع وغيرها..



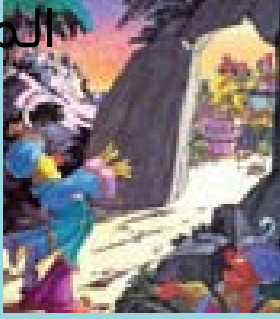
## صفات الباب

ليس كل ما يفصل الداخل عن الخارج باباً، فالباب لا يؤدي مهامه إلا إذا تحلّى ببعض الصفات أهمها:

- 1- قوي ومتين، حتى يتحمل تقلبات الجو، وكثرة الاستعمال والصدمات التي قد يتعرض لها.
- 2- عازل للحرارة والصوت، كي يقي من في الداخل من شدة البرد أو شدة الحر، والضوضاء.
- 3- مقاوم للحريق، ويساعد في وقف عملية انتشار اللهب والدخان.



والباب قد يكون كبيراً أو صغيراً، حسب مهمته ووظيفته ومكان وجوده. فالباب الخارجي ليس كالأبواب الداخلية للمنزل، وباب المنزل ليس كبوابة العمارة، وباب المنزل الذي في المدينة ليس كباب المنزل الذي في الريف والقرى.



## إفتح يا سمسم التكنولوجيا

ولطالما كان الباب فاصلاً بين عالمين: الداخل والخارج، والظاهر والباطن، وقد ارتبط قديماً بالأساطير والمغامرات والخيال، لعل أبرز مثال على ذلك حكاية «علي بابا والأربعين حرامي» حيث عثر علي بابا على كهف مليء بالذهب، مغلق بباب سحري صخري، واكتشف كلمة السر التي فتحت أمامه باب الكهف وهي «إفتح يا سمسم». وهكذا مرّت الأيام، وصارت أسطورة تلك الصخرة الثقيلة حقيقة في عمارات، فيها كنوز من ذهب، أو في مكاتب وخزائن فيها أسرار دول، أو في سراديب تخبيء صواريخ وأسلحة ذرية، حيث صارت هذه الأبواب لا تفتح إلا بكلمة سر، أو بصمة صوتية، أو الريموت كونترول.



## الأبواب والفن

صحيح أن للباب دوراً أساسياً يتجلى في توفير الأمان والدفع والخصوصية، إلا أن تطوّر فن العمارة، وانتشار الرفاهية، وظّف الزخرفة والنقش لإنتاج أبواب، تحوّلت إلى تحف فنيّة، وجزء من التراث الثقافي والتاريخي في بعض البلاد. واكتسب الباب والبوابة رمزية استثنائية، في الفنون، حيث صوّرتهما اللوحات الفنيّة العظيمة للتعبير عن رمزيتهما في كلّ مكان. فالباب قد يرمز إلى التحفّظ والتكتم والغموض حين يكون مغلقاً، وللحرية حين يكون مفتوحاً على مصراعيه. وبعض الأبواب قد تدل على الظلم والقيود، كالأبواب الحديدية ذات القضبان التي ترمز إلى السجن والاعتقال.

## الباب في الأمثال الشعبية

- وفي التراث الشعبي كان الباب حاضراً بدلالات مختلفة أيضاً مثل القول:
- الكريم لا باب له، أي أنه يستقبل دائماً الضيوف، أو أصحاب الحاجة.
- أو: لا تفتح عليك أبواباً مغلقة، أي ابتعد عن المشاكل.
- وسّع بابك يكثر أصحابك، أي كن لطيفاً ومنفتحاً على الآخرين كي يحبوك.
- كلّ باب وله مفتاح، أي أن لكلّ مسألة صعبة مدخل.
- باب النجار مخّلع، كناية عن أن من يهتم بشأن من شؤون الناس قد يهمل حل شؤونه.
- الباب الذي تأتيك منه الريح سدّه واسترح، أي تجنّب الأمور التي ستجلب لك المتاعب.
- لا تدخلوا البيوت إلا من أبوابها، ويعني أن تكون مطالبك واضحة وصریحة.



يحرص العمارات السكنية، أو الإدارات والمنشآت العامّة والخاصة أيضاً. لكن مهمّة بواب العمارة تشبه إلى حد ما مهمّة بواب المدينة، حيث يهتم بنظافتها، ومراقبة الداخلين والخارجين منها، ومساعدة سكان المبنى في بعض الشؤون، كما يقوم بإغلاق البوابة ليلاً لحمايته من اللصوص، ولا تفتح البوابة إلا صباحاً.

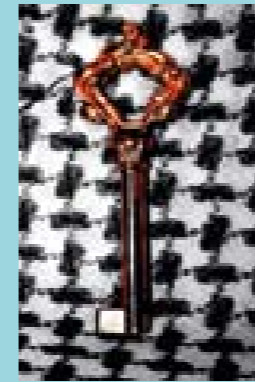
في فرنسا، افتتحت أول مدرسة لتخريج بوابين عملهم حراسة العمارات. وتعطي هذه المدرسة دروساً في الإسعافات الأولية، والتعامل مع حالات الحريق والطوارئ، والتأسيسات الصحية والكهربائية، والتعامل مع كاميرات المراقبة والأبواب الإلكترونية. ويخضع الطلاب للتدريب العملي لمدة شهر بعد الانتهاء من الدروس النظرية. أمّا الهدف من هذه المدرسة، فهو تأهيل البوابين وتحسين مهنة البواب، لأنه يشكلّ عنصر الأمان للسكان والمنشآت.

## القفل والمفتاح

وربما لن يتمكن الباب من تأدية واجبه على أكمل وجه، بدون مساعدة رفيقيه: القفل والمفتاح. وأول نظام للقفل والمفتاح في التاريخ ابتكره الآشوريون في الشرق الأوسط، منذ حوالي ٤٠٠٠ سنة. حيث وجد علماء الآثار بعض الأقفال والمفاتيح، من مخلفات وآثار قصر ملوك آشور في العراق.

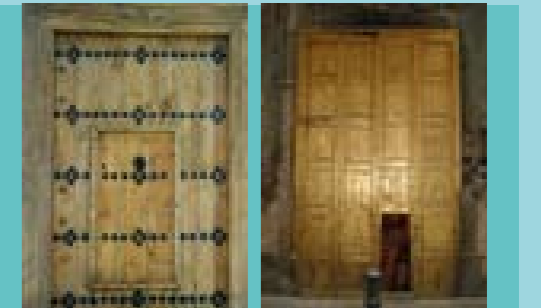


وكانت تلك الأقفال البدائية مصمّمة من الخشب، وبها فتحة لدخول المفتاح. وكان المفتاح عبارة عن عمود خشبي يُدار داخلها، فتزاح بعض القطع الخشبية بالداخل، فيفتح القفل. كما استخدم قدماء المصريين نفس هذه الأنواع من الأقفال. أمّا الأقفال والمفاتيح المعدنية فكان أول من ابتكرها واستخدمها هم الرومان. وكلّ قفل من أقفال الأبواب له مزلاج يمنع فتح الباب دون مفتاحه. ويستخدم الإنسان مفتاحاً لفتح قفل الباب من الخارج، بينما يغلق ويفتح الباب من الداخل بالمقبض.



وللمفتاح أيضاً رمزية خاصّة، فهو يجسّد الأمل في العودة إلى فلسطين، التي هجر أهلها، فأغلقوا أبواب بيوتهم، وحملوا مفاتيحها أملاً بالعودة إليها. ورغم أن معظم هذه البيوت لم تعد موجودة، أو تغيّرت أفعالها، إلا أن التمسك بالمفتاح يعني التمسك بحق العودة إلى الأرض والوطن والبيت.

«باب الخوخة» هو الباب الصغير الموجود في الباب الكبير، والذي شاع استخدامه في دمشق في القرن الثامن عشر، وكان يتطلّب لدخوله حتّى الظهر، ولعل الغاية من «باب الخوخة» كانت إظهار الاحترام للبيت وأهله من قبل الداخل إليه.



## أبواب ليست بأبواب

وكما للبيوت أبوابها، كذلك للكتب أبواب وللعلوم أبواب وللفنون والحرية أيضاً.. ولعبور هذه الأبواب، لا بدّ من طرقها، أو محاولة اكتشاف مفاتيح الدخول إليها.

أبواب السماء: حيث ورد ذكر الباب في القرآن الكريم ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (الحجر: ١٤).

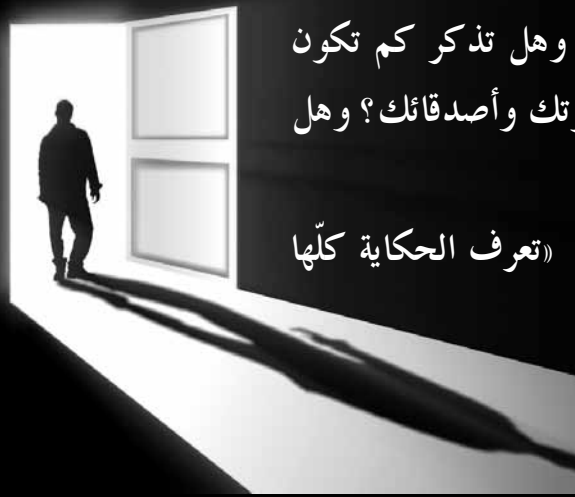
أبواب العلم: وهو تعبير يستخدم للرمز إلى أماكن الحصول على العلوم المختلفة، فعلم الدين بابه العلماء والفقهاء والكتب المتعلقة به، وعلم التاريخ كذلك، وعلم الرياضيات، والطب...

أبواب الرزق: ويُقال باب رزق، لأي مكان يعمل فيه الإنسان كي يحصل على قوته، حتى لو لم يكن لهذا المكان باب حقيقي، فسائق سيارة الأجرة مثلاً تعتبر سيارته «باب رزقه»، كما تعتبر الطرقات العامّة «باب رزق» شرطي السير..

أمّا مطرقة باب الحرية، فهي فريدة من نوعها، لفرادة بابها، ووصفها الشاعر أحمد شوقي في إحدى قصائده، حين قال: وللحرية الحمراء باب بكلّ يدٍ مضرّجة يُدقّ.



وحدها سيرة الأبواب، قد تفتح أمامنا ألف باب وباب، من القصص والأسرار والدلالات والرموز المختلفة، فهل تذكر كيف كنت تخرج مسروراً من باب المدرسة، في بداية العطلة الصيفية؟ وهل تذكر كم تكون سعيداً حين تفتح باب البيت للخروج إلى اللعب مع إخوتك وأصدقائك؟ وهل يمكنك أن تنام دون باب يقي صاحياً ليحرسك؟  
إنّها الأبواب، تلك التي قال الشاعر أحمد مطر إنّها «تعرف الحكاية كلّها من طق طق إلى السلام عليكم».



هل لديك موضوع تحبّ أن تعرضه في صفحات ملف «أحمد»، شاركنا به وارسله عبر البريد الإلكتروني:

ahmadmagazine@alhadaekgroup.com